Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 10:3 (1975)

أسس الحوار
بين الاسلام و الأديان الأخرى

للدكتور صلاح الصاوى

استاذ بكلية الآداب و العلوم البشرية بجامعه طهران

كتب هذا المقال رداعلى اسئلة اربعة تقدم بها الى صاحب المقال الاستاذ أميليوجالندو الامين العام للجمعية الاسلامية المسيحية فى مدريد باسبانيا و مجلة الدراسات الاسلامية يسرها ان تقدم هذا المقال الى قرائها الكرام لما فيه محاولة للتقارب بين الاسلام و الأديان الأخرى لاسيما المسيحية و لما فيه من نضوج الفكر وجودة العرض و صراحة الحوار .

—التحرير

١ - كيف يتصور الاسلام الحوار مع الأديان الأخرى ؟

٢ - ماهى من وجهة النظر الاسلامية، المواضيع الأساسية لحوار اسلامى مسيحى ؟

٣ - ما تطلبون من المسيحيين لكى يكون الحوار مع لمسلمين ممكنا و مفيدا ؟

٤ - ما هى فى نظركم ''فوائد،، حوار دينى اسلامى مسيحى ؟

* * * *

أن لى كلمة أود أن أقولها قبل الاجابة مباشرة، هى : أن الحوار بين الاسلام والأديان الأخرى و خاصة المسيحية باعتبارها الدين الموروث مباشرة، ليس بالشىء

الجديد، فهو قائم على مختلف المستويات منذ ظهور الاسلام و أعلن النبى (ص) دعوته حتى اليوم .(١) و القرآن لم يقصر فى تناول كل ما يمكن أن يطرأ على الفكر من مباحث حول مواضيع الخلاف . فقد كان عليه باعتباره الدين الجديد الوارث أن يثبت جدته وأحقيته، و أن يضع الأديان الاخرى فى نصابها الصحيح، شأنه فى ذلك شأن كل دين بالنسبة لما سبقه . أو بقول فريد هوف شوون : ''فاذا كان القرآن يحتوى على عناصر جدلية تختص بالمسيحية، ولأسباب أقوى باليهودية، فهذا، لأن الاسلام جاء بعد هذين الدينين، و هذا يعنى أنه كان عليه أن يتقدم على ما جاء قبله، و هناك نقطة النظر التى تسمح له بذلك . و بعبارة أخرى، أن القرآن، انما يعلن وجهة نظر تجعل فى امكان التوحيدين الأقدسين أن يرتفعا من بعض جوانبهما الصورية . . . و نظير هذا يمكن أن يشاهد فى وضع المسيحية بالنسبة لليهودية فيما يختص بفكرة المخلص أو واهب النجاة . . . فالدين الأخير مطالب أمام وجهة النظر الرمزية للتقدم، و الا لحكم عليه بالعدم . و على هذا الاعتبار يكون الواجب على الدين الجديد، وهو من وجهة نظره آخر الأديان، أن يجسم ''ما جاء من قبل،، أو ''ما كان موجودا دائما،، ، فجدته أو عظمته

---

(١) لقد سجل القرآن و الحديث ما دار من هذه المحاورات بين النبى(ص) شخصيا و بين أصحاب الأديان الأخرى، كما سجل التاريخ و الكتب الاخبارية مالا يعد ولا يحصى منها بين علماء المسلمين و علماء الأديان السابقة على الاسلام، سيان ما كان منها فى الدائرة الأبراهيمية أو فى غيرها و خاصة مما داربين الائمة من آل محمد على وجه العموم والامامين جعفر الصادق و الرضا(ع) هذا كما أننا لا زلنا نذكر المناظرة التى دارت بين جماعة الأساقفة و على رأسهم عظيمهم الجاثاليق بريهة و بين هشام بن الحكم . لمزيد من الاطلاع ارجع الى ''البحار،، للمجلس، ''الكافى،، ج ١، الأصول، ''عيون أخبار الرضا،، ، ''حوار بين الالهيين و الماديين،، و فى هذا الأخير يقدم المؤلف بأسلوبه الشيق المعروف نماذج من تلك المحاورات توفر على القارئ عناء الغوص فى بطون الكتب .

بناء على ذلك، هى أسبقيته الاطلاقية،، .(١)

ستة الأديان هذه، تقررها الكتب السماوية جميعا، و على أساسها آمنت ملايين البشر بالدين الجديد دائما، فخرجت من اليهودية الى المسيحية، و منها الى الاسلام. فاختلاف مسالك الأنبياء و تفاوت اشكال العبادات لا يؤثر مطلقا على الجانب الثابت فى الأديان، لا يؤثر على أصول العقائد و الاحكام، انما التأثير و التغير يكون فى الفروع التى من شأنها التبدل حسب مقتضيات الزمان . فالأنبياء جميعا يشيرون الى الحقيقة الواحدة، و انما يشير موسى باصبع الصبى الذى لا يتجاوز حجر بيته أو عشيرته تأسره و تنهاه، و يشير عيسى باصبع الشاب المراهق الذى يخرجه الحب من العشيرة الى الانسانية . . . و يشير محمد بأصبع العاقل الكامل المكلف . وما ذا بعد اكتمال العقل الا التعالى بالعقل الى مقام الحقيقة . الا أن هناك فى كل من تلك الأديان طبقة من أصحاب المصالح تشكل مع بعض الظروف الزمانية و المكانية سدودا تحول بين الناس و تفهم الحقيقة ، و تقطع الطريق بينهم و بين الله . و أول ما يوجه الى هذه الطبقة هو خطيئتهم فى تحريف كتبهم المقدسة، بله ما يكيلونه للدين الجديد من افتراءات ، سيان كانت نتيجة لقصور الفهم و العصبية العمياء، أو لسوء القصد و التمسك بالمصالح الشخصية، وما أكبر نصيب الاسلام من عداوة هذه الطبقات و افتراءاتها .

و مع هذا، فهناك وجه آخر من الحوار، و ذلك هو الاحتكاك العملى و الحوار اليومى الواقعى المستمر . فكل فريق يزاول حياته الدينية الى جوار الآخر، و المسيرة

---

(١) Understanding Islam ''الفصل الثانى، ترجمة الداعى، لا زال تحت الطبع، بعنوان ''حتى نفهم الاسلام،، .

الزمنية التى قطعتها الأديان حتى اليوم كفيلة بالحكم الصحيح . و هذه المقارنة و إن كان المجال يضيق عن تناولها بالحديث و كنا نفضل الاكتفاء بالاشارة اليها و تركها لانصاف أولى النظر من القراء ، الا أنه ينبغى الا تفوتنا الالماعة الى أن ميدان الاسلام لا كتساب المنصفين لا زال مفتوحا دون الالتجاء الى وسائل النصرانية من تبشير و تعاور فى مسوح الاستعمار و تكاتف معه على تضليل عباد الله الأبرياء البسطاء . فما أكثر أولئك المهتدين البررة بأنفسهم فى عصرنا هذا، ممن تجردوا من كل المؤثرات الخارجية و الذاتية و نخلوا الأديان بمناخل الانصاف و الحق حتى و صلوا الى حقائقها الثابتة ، فلم يكن أساسهم الا الاعتراف بأ حقية الاسلام و كماليته ،و أدركوا أنه وحده، هو السبيل الوحيد الى الخلاص و النجاة، و الحل الوحيد لكل ما يهدد الانسان من أزمات المدنية الحديثة و مشاكلها، تلك المشاكل التى جاءت نتيجة لانفصام عرى الترابط و التكامل بين الأديان و تحوصلها فى قواقع العداوة من الاسلام ، مما أدى الى وجود ثغرات واسعة شجعت الا نسان على المروق و الجرأة على الحق و الاستهانة بالدين، مع أن الدين هو القاعدة الاساسية فى حياة الانسان بحيث لو اهتزت هذه القاعدة لانهارت حياة الانسان كلها . فمن أكبر الحماقات أن يعتبر الدين أمرا صبيانيا أو نوعا من الأساطير الميثولوجية البدائية ،و هو فى حقيقته أمر غاية فى الجدية رهيب للغاية . بل ما أكثر تطلعات الجماهير فى مختلف الملل و النحل الى هذا الاسلام الذى كلما أوسعوه افتراء وعداء وسعوا للقضاء عليه ازداد ثباتا و صمودا وانتشارا . فان كان هناك اليوم انسان فى الأرض يتمتع بالرضى الكافى لتحقيق السعادة، والاطمئنان الكافى لتحقيق الاستقرار، والايمان الكافى لتقبل ظروف الحياة على أنها خير، بمعنى وجود انسان أكبر من الأحداث و اضطراب ظروف الحياة، فان هذا

السعيد هو المسلم لا غير، المسلم الذى يؤ من بأن ''الخير فيما يختاره الله،، لا ''المؤلم هو ما يريده الله،، .

أما عن السؤال الأول، فنقتصر الجواب على ما يأتى :

أولا : أن الاسلام يعتبر نفسه دينا للناس كافة، و أنه هو وحده الدين ولا دين غيره منذ ظهوره حتى يرث الله الأرض ومن عليها. و على حسب المثل الفارسى القائل : ما دامت المائة معنا فالتسعون أيضا لدينا(١) من آمن بالاسلام فقد آمن بالدين كله فى أتم أشكاله . و آية ذلك، أنه اذا كانت أديان الأوائل قد بلغت بالانسان فى مسيرتها التكاملية الى معرفة التوحيد عند ابراهيم(ع) فالتوحيد قبل ابراهيم كان كالزهرة البرية، فقد وصلت الأديان الابراهيمية بالتوحيد الى قمة كماله عند محمد(ص) . فالأديان السماوية جميعا بينها مضروب مشترك هو الاشارة الى الحقيقة الواحدة، و هذا لأن هذه الحقيقة الواحدة هى التى تكلمت فى كل زمان و كل مكان بما يقتضيه الحال — هذا المقتضى من الحال جعل ما يصلح لزمان أو لقوم لا يصلح لآخر أو لآخرين ، أو بعبارة أخرى أن فى كل وحى جانبين : جانبا الهيا و آخر انسانيا . فهذا لأن الله هو الذى تكلم مع الانسان و جانب الله ثابت لأنه مطلق و المطلق لا يتغير . و أما الجانب الثانى الانسانى فهو نسبى و كما يقول حتى النسبيون، ان الجانب الانسانى محكوم بشروط الزمان و المكان والا لكان هو المطلق و من هنا تغير الانسان . هذا الى أن حكمة الله تقتضى أن يتكلم مع الناس على قدر عقولهم و حسب شروطهم ما أكثر وما أقل . و من هنا تنشا كثرة الأديان . فالاديان من وجهة نظر الله واحدة و جميعها تؤكد على

---

(١) معنى البيت الفارسى القائل :

جونكه صد آمد نود هم بيش ماست

التوحيد بطرقها الخاصة. و من وجهة نظر الانسان مختلفة باختلاف الانسان . و من ثم جاء كل دين معترفا بما قبله، ناسخا له، مشيرا لما بعده، مقدما للحال ما يقتضيه من وجهة نظر الكمال و التنامية، حتى جاء الاسلام و هو آخر الأديان، فاعترف بما سبق اكمل الدين و أختتم النبوة . و هكذا بلغت الرسالات السماوية غايتها و استنفدت أغراضها بالاسلام . وما كان لدين أن يتأخر عن زمانه أو أن يتجاوز حدوده .

دعنا في هذا المقام نقتبس تعليل پاول آرنست اذ يقول ''ان النهر ينحدر في جريانه فلا ينسج البرد على صفحته رداء الجليد . و لكن في قعره ينبت العشب و الحلفاء ، فتنحني سيقان هذه الأعشاب مع مجرى النهر . فاذا نفذ البرد اليها ترك على عساليجها و أوراقها ذرات الثلج، فتجتمع هذه الذرات بعضها الى بعض و تنبسط على وجه القعر . فاذا استكملت سمكها طفت على سطح الماء لأنها أخف منه، ثم تفرقت قطعا و بقيت تدور طافية حول مركزها حتى تلتصق القطعة بصاحبتها . و هكذا تقترب كل واحدة من الأخرى و تلتصق بها أن يتكون من الجميع صفوف متوازية لا تلبث أن تدخل ذرات صغيرة تكون وسيلة الجمع بينها، فيحدث بذلك كله درع على صفحة النهر .''(١)

هذا التكامل و التنامية، هو ما يشير اليه نبي الاسلام محمد(ص) بقوله : ''مثلي و مثل الانبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه و أجمله الا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به و يعجبون له و يقولون : هلا و ضعت هذه اللبنة ؟ !

---

(١) حوار العباقرة ''پاول آرنست''، ترجمة بديع شريف، مصر، دارالمعارف تحت عنوان النهر المتجمد أو معنى الوجود، حيث يوضح المؤلف حقيقة مظاهر الكون المادية و المعنوية كيف تتلاحم أجزاؤ ها في الطبيعة و كيف تتداعى معانيها في العقول .

فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين .،،(١)

فلنستعرض اذن الأديان العظيمة قبل الاسلام . لنرى، ما اذا كان فيها ما يستطيع أن يختتم دور النبوة فى تاريخ البشرية ؟ ! والجواب بالنفى طبعا، هذا، لأنها جميعا بدأت وانتهت قبل أن توجد فى اذهان الناس فكرة الانسانية العامة و فكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقل و الضمير، القادر على فهم أبعاد المقام الانسانى . فما هى الا مراكز تدور حولها قطع الثلج المتناثرة أو أجزاء البناء الناقص .

فنبوات بنى اسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة تنعزل بحاضرها و وعود مستقبلها عن سائر الامم. و عيسى (ع) و ان كان قد نقل الرسالة نقلة و اسعة حين أدخل ابناء ابراهيم بالروح فى عداد ابنائه بالجسد، الا أنه أدى رسالته و بقى الانسان بعده محتاجا أشد الحاجة الى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره فى النجاة من أوزاره و التفكير عن سيئاته و النهوض بتبعات صلاحه و تربيته الروحية. و لن تفرغ أمانة النبوة فى تاريخ الانسانية قبل أن يوجد الانسان الذى يخاطب بخطاب العقل، و يحاسب بحسابه، و يحمل تبعاته على عاتقه، و يشترك على سواء بينه و بين اخوانه البشر فى عبادة اله واحد: هو رب العالمين، و ليس بالرب الذى يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله، و حساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها . و ما كان الانسان ليولد بذنب غيره، و يموت بذنب غيره، و يبرأ من الذنب بكفارة غيره و يمضى بين النعمة واللعنة بقدر من الاقدار لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة و من اباء أو اختيار . .

---

(١) البخارى كتاب المناقب، باب خاتم النبيين .

فلما جاءت دعوة الاسلام، جاءت نبوة التكليف . وصح فى حكم العقل أن تختتم النبوة، لأنها حاضرة فى كل وقت يحضره الانسان العاقل المسئول و تحضره آيات الله لقوم يعقلون . ان قيام النبوة على اقناع العقل المسئول بآيات الكون قد اختتم سلطان الأحبار و القادة، كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات و خوارق العادات . فلا يعذر الاسلام انسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الاحبار المسلطين بسلطان المال والدين .

فاذا سمى خاتم النبوة باسمه الحق فى التاريخ الانسانى، فاسمه الحق أنه هو فاتحة عهد الرشد فى حياة الأنسانية الخالدة، قبل عهد الرشد الذى أخرجته القرون الوسطى بسبعة قرون، و بداية عهد العقل المكلف المسئول . و كما يقول العقاد : و من العبث و الجهالة أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار فلا يعطى حقه من الفهم و التقديس، و يسمع من يفسره فى "عصر العلم"، فلا يفهم منه الأأنه "حكر" الأثرة يغلقه النبى على من بعده، و يستسيغ هذا السخف، و هو صورة لا تقبل التصوّر عن هذا النبى كيفما تصوره الناظر اليه على حقيقته أو على دعواه . . . فهذا "الحكر" صنيع لا يصنعه نبى أمر أتباعه بتصديق الانبياء من قبله(١) وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه(٢) ولطرد سمعة المعجزة عن دعوته وهى طيعة منقادة بين يديه(٣) . فان جاز فى حقه الحكر

---

(١) "آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه، و المؤمنون كل آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله " البقرة : ٢٨٥ .

(٢) "قل سبحان ربى هل كنت الابشرا رسولا"، الاسراء : ٩٣ .

(٣) اذا كانت المسيحية تعتز بمعجزة ميلاد المسيح من السيدة العذراء، فان صدور هذا القرآن من نبى أمى ليفوق تلك المعجزة بمراحل .

المغتصب، فهل يجوز فى حقه أن يغتصبه من الله و أن يامن تكذيب الله اياه و قدرته على اخلال دعواه ؟ !(١)

ثم ان الاسلام أعلن ختام النبوة، ولم يضع حجرا فى سبيل أو يغلق بابا فى وجه . و حلا للكثيرين أن يقتحموا باب النبوة و فى ذلك تنافس المتنافسون . فما خلت فترة من الزمان منذ أيام الرسول(ص) من وارد من هذا الباب استبد به الحمق ودعاه سو المنقلب الى ادعاء النبوة، حتى عصرنا هذا حيث انتقلت العدوى من المدعين لحساب أنفسهم الى المدعين لحساب الغير . وصارت النبوة برنامجا من برامج ''الكومنولث،، . فهل كانت هذه الحركات الا تفاقم جراثيم هيأ لها الاستعمار الجو الصالح و البيئة الملائمة للتكاثر و التفشى فى أجزاء نائية عن مراكز الاشعاع أو أجزاء ضعيفة فى جسم العالم الاسلامى أولى خصائصها جهلها بلغة القرآن. ثم تنتفخ الفقاعة بأحدهم فاذا به مصلح، و تنتفخ فاذا به مجدد، و تنتفخ فاذا به امام، و تنتفخ فاذا به نبى، و تنفجر فاذا به أخيرا اله أو لا أقل من ابن أبناء الله ! ! ولو كان الاسلام قد أشار الى مقام فوق الالوهية لادعوه لأنفسهم وما هم فى الحقيقة الا متطفلون سمجاء على الاسلام و ما دعاويهم الا أمراض ناشئة من تقلب الايام عليه .

و حسبنا أن نقرر الواقع الملموس اليوم من الفوضى العقائد ية فى العالم و خاصة فى الغرب و على الأخص فى أمريكا، حتى نصدق نبوءة السيد المسيح (ع) عن المسحة الكذبة أو نبوءة المصطفى(ص) عنهم فى آخر الزمان . لقد قدم أصحاب هذه

---

(١) لمزيد من الاطلاع ارجع الى المرحوم عباس محمود العقاد فى كتاب ''الانسان فى القرآن الكريم،، القاهرة، دار الاسلام، حيث يقارن الكاتب بين الانسان فى القرآن و انسان القرن العشرين .

الدعاوى كتبا وسنوا شرائع كانت كلها تحريفا لآيات القرآن و مبادئ الشريعة السمحاء و افتراء على الحق أو ترهات من البخور و الشعوذات و أصداء الوثنية . فما قالوا الا هراء ولا صوروا الا خرافات ولا قدسوا الا هتائك خلقية، ناسين أن الفرق بين كلمة السماء و كلمة الأرض كالفرق بين السماء والأرض .(١) : ''تزول السماوات والأرض ولكن كلامى لا يزول،، (٢) . . : ''آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين،، (٣) . و أخطر شئ هو الاستهزاء بالله و دينه و ما هى الا أن الله يستهزئ بهم لسؤ نياتهم و يمد هم فى طغيانهم يعمهون .

لقد سئل على بن ابى طالب : هل بقى لديكم (يا أهل البيت) شئ من القرآن ؟ قال : لا، الا أن يؤتى امرؤ فهما فى القرآن . و من ذا الذى فهم القرآن

---

(١) على سبيل المثال : يعتبر العلامة محمد اقبال، ان القاديانية ثورة على نبوة محمد (ص) و مؤامرة ضد الاسلام و ديانة مستقلة و أنها محاولة منظمة لتأسيس طائفة جديدة على أساس نبوة منافسة لنبوة محمد(ص) وأنها تريد أن تنجب من أمة النبى العربى أمة جديدة للنبى الهندى . كما أن نهرو بعد عودته من بريطانيا قال : اننى فى سفرى هذا أخذت درسا جديدا هو أننا اذا أردنا أن نضعف قوة بريطانيا علينا أن نضعف الجماعة القاديانية،، . و كان محمود أحمد يقول مرددا أقوال ميرزا : ''ان الجنة تحت ظل ذلك السيف المسلول الذى يسل للدفاع عن الامبراطورية البريطانية و لقد علمنا امامنا أن ألم الحكومة البريطانية هو ألمنا،، و كان يتباهى بأن الأحمديين أقراوا دماءهم فى فتح العراق مع بريطانيا . ''القاديانية نشاتها و تطورها . حسن عيسى، القاهرة، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م . و ليس هنا مجال الاطالة فى العديد من الصور البشعة لتشويه الحقائق عمدا على حساب الحقيقة من جانب و حساب البسطاء من الآخر . و كل هذا تضليل استعمارى غرس فى بيئات جاهلة بلغت من حب الاسلام درجة أن الفرد يتبارك بكل من يتكلم العربية (ـــلغة القرآن و النبى العربى) فما بالك بتقديسه لمن يحرف القرآن ويؤول فيه على هواه .

(٢) الانجيل .

(٣) البقرة : ١ ـــ ٣ .

حق الفهم حتى الآن ؟ ! ان الامام على يشير بهذا الى أن القرآن سنفتح على اللانهاية التى تتناهى دونها أشواط العقول . وها نحن أهل العربية نكتشف فى القرآن على ظاهره كل يوم جديدا، فما بالك لو فهم على الحقيقة . ولا مبالغة مطلقا لو قلنا ان الفلسفات و العلوم الحديثة وما سجلته من نظريات و حققته من نتائج ايجابية كانت أو سلبية بالغا ما بلغت لا تعدو بضع اشارات فى القرآن لم تفهم على حقيقتها الا بعد اكتشافها . وفى هذا دلالة على إتباعية العقل الجزئى لا ابداعيته و بالتالى على انخداع المفتونين به و قصورهم . أما أصحاب العقول الكلية أصحاب القلوب فقد عرفوا الحقيقة و منهم من لم يملك الا الصمت و منهم من أشار اليها .(١) هذا الى جوار ما يؤيد ذلك من أخبار وما وصف به القرآن فى القرآن كقوله تعالى : "ما فرطنا فى الكتاب من شئ" .

على هذا الأساس : أساس " الخاتمية و الكلية " ، فالاسلام آخر النبوات و ختام الرسالات وهو هو أول النبوات و فاتح الرسالات (= و أول الفكر آخر العمل) و هو هو الدين الابراهيمى، دين التوحيد فى تماميته . أو هو فى كلمة جامعة، هو الدين كله، "و من يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه و هو فى الآخرة من الخاسرين". و على أساس العقل المكلف المسئول، و الحقيقة القرآنية الجامعة، و على مستوى الترفع عن المجاملة أو التهاون فى الحق يمكن للحوار أن ينعقد بينه و بين الأديان الاخرى و خاصة المسيحية. و أما بالنسبة للسؤال الثانى فنقتصر على ما يأتى :

---

(١) ارجع الى جلال الدين الرومى فى كتاب "فيه ما فيه"، حيث يشبه القرآن بالعروس ليلة زفافها و قد تدثرت بأثواب كثيرة كلما جهد مريدها فى خلع ثوب تمنعت وراء الآخر ولا يصل اليها الا بعد عناء و مشقة، و هذا لان القرآن ليس من الرخص و السطحية بحيث يصل الانسان اليه و يلم به فيتجمد على وضع ينتهى اليه و انما هو اعماق فى أعماق كلما أخذت منه اعطاك جديدا .

أولا : بالاشارة الى التناقض الصريح بين الغرض من فكرة الخلق أصلا و المسيحية بما هي عليه الآن. بمعنى أن المقام الانسانى هو مقام الحرية والاختيار، و ما خلق الانسان الا ليعرف الله على أساس التعقل و الحرية، هذين اللازمين المتلازمين حيث لا يصح التعقل الا اذا توافرت الحرية، ولا تعقل الحرية الا اذا توفر العقل . فعلى حين نرى أن المقام الأول والأسمى هو مقام العقل ثم تأتى الارادة فى المقام الثانى، نرى المقام الأول فى المسيحية للارادة ثم ياتى العقل فى الدرجة الثانية . أو بعبارة سنت انسلم : ''اننى اومن لكى أفهم،، بمعنى استحالة التعقل الا بعد التقيد بالايمان، أو على حد قول القديس او جستين : ''بغير الايمان يستحيل على الانسان أن يفهم .،،

''ان هذا الايمان انما يلغى العقل و يشله و يلقى به بعيدا الى طرف التصديق بغير سؤال أو انتظار جواب، فاما عقل ولا تصديق و اما تصديق ولا عقل، ضدان لا يجتمعان. و الفرق بعيد بين الايمان الذى يلغى ''العقل والايمان الذى يعمل فيه العقل غاية عمله، ثم يعلم من أين ينتهى و أين يبتدئ الايمان . ان الايمان هنا، نتيجة لعمل العقل غاية جهده و ليس نتيجة لاهماله و ابطاله،،(١) .

دعنا نفترض أن الارادة قد فسدت، فما هى قيمة ''العشاء الربانى،، أو أى نوع من الوساطة فى اصلاحها، انه العقل وحده هو الذى يستطيع أن يصلحها، أما اذا فسد العقل فالارادة عاجزة ابدا عن اصلاحه . و هذا بالفعل، هو ما حدث من تمرد العقل على الكنيسة وما أدت اليه هذه الثورة من ردود الفعل بالنسبة للدين و المجتمع و انهيار قلعة الكلاسيكية فى القرون الوسطى حتى يومنا

---

(١) المرحوم العقاد . فى نفس المرجع المشار اليه آنفا .

هذا الذى نضجت فيه قرون الشك و نثرت فى كل مكان من الأرض مختلف أنواع البذور من الالحاد و المروق فى ألف مذهب و عقيدة .(١) هذا، على حين أن الاسلام يقول : "اعقلها و توكل"، أى لا تسلم قلبك الا بعد أن تفهم تماما أنك ستضعه فى المكان الذى لن تسترده منه أبدا ، لأنك وضعته فى مكانه الأصلح . و هنا لا مجال مطلقا لتمرد العقل أو لمرض الارادة .

ثانيا : ان اخواننا يقولون بألوهية ثلاثة قدماء : اب، ابن، روح قدس. و هذا الثالوث لا يتفق مع دين توحيدى، بله الاسلام . و آية ذلك، ان التوحيد عبارة عن الاعتقاد الحق بعدم الشريك فى الألوهية و خواصها، و من خواصها القدم، بمعنى، عدم المسبوقية بالعدم . أما الألوهية ذاتها، أو بعبارة أخرى وجوب الوجود، فهو القدم بمعنى عدم المسبوقية بالغير . و قولهم هذا، يقتضى أن يكون كل "أقنوم" من "الأقانيم" الثلاثة ممتازا عن الآخر بخصوصيته. فاذا كان الوجوب والامكان من لوازم الماهية المشتركة، لزم اشتراك الكل فيها، و ان كانا من لوازم الماهية مع الخصوصية، لزم التركيب المنافى للوجوب، فالتركيب آية الفقر و الحدوث أينما كان و حيثما حل . ولو تعدد الواجب، لزم وجود الممكن الذى هو مجموعهما، بلا علة مؤثرة فيه . و اللازم محال ضرورة، اذ لو كان هناك علة مؤثرة فيهما فهى نفس المجموع، وهو محال لامتناع تأثير الشئ فى نفسه، أو هى أحدهما،

---

(١) مسألة قامت حولها مناقشات و بحوث كثيرة بين المسيحيين على تعاقب الفترات ولم يعترف بها بعض مفكريهم، فترى مثلا يوحنا الاسكتلندى على حد قول برتراند رسل يرفع العقل فوق الايمان ولم يأبه قط لسلطة رجال الدين : "لقد بالغ هذا الرجل فى احترام العقل حتى قال بأن العقل و الوحى كليهما مصدران للصدق و لذا لا يمكن أن يقع بينهما اختلاف. كما ذهب فى مسألة الجبر والاختيار الى حرية الارادة" . الا أنه أدين بالكفر . تاريخ الفلسفة الغربية .

وهو أيضا محال لا ستلزامه كون الواجب الآخر معلولا للواجب العلة . فقولهم بأن الثلاثة اله واحد، هو تأكيد للشركة و التركيب، كما نقول ان المركب من ثلاثة آحاد يحصل بمجرد ايجاد الواحد الثالث بعد الثانى، فوجود ذلك المركب عبارة عن مجموع الوجودات الثلاثة فى حد ذاتها، و ليس وراء الوجودات الثلاثة أى وجود آخر . ثم كيف تتصور الثلاثة الا أن يكون الواحد متقدما عليها موجودا فيها، مع أن واجب الوجود لا شئ قبله كما أشرنا .

و ظلت مسألة الثالوث حتى اليوم لغزا مبهما و طلسما فى صندوق مغلق يجب قبوله دون التفكير فى فتحه و التعرف على محتوياته . فان فتح ثار الجدال و نشبت المعارك العنيفة التى قسمت الكنيسة الى شرقية و غربية ولا زالت تقسم فى كل كنيسة الى شرقية و غربية، وجرت من الويلات مثل ما حدث فى الاسكندرية بزعامة القديس كيرلس المدافع الأكبر عن وحدة المسيح، من الاعتداء على السيدة هيپاثيا و محاكمتها غير مستند الى قانون، أو على حد التعبير "لقد انتزعت من عربتها انتزاعا و عريت من ثيابها وجرت الى الكنيسة و ذبحت ذبحا وحشيا على يدى بطرس القارئ و طائفة من المتهوسين الدينيين الغلاظ القلوب القساة بلا رحمة، و كشط لحمها عن عظامها بمحار حاد الأطراف و قذفت فى النار بأعضاء جسدها وهى تر تعش بالحياة"(١) .

لقد اختلفوا أنفسهم على طبيعة السيد المسيح، و حتى على طبيعة السيدة العذراء مريم، وما هذا الا لأن الأقانيم الثلاثة لم تأخذ مفهومها الواضح المستقر فى العقل حتى اليوم . فذهب البعض الى كون المسيح فى مظهره الأرضى ذاطبيعة

---

(١) نفس المرجع .

لاهوتية، و ذهب البعض الى كونه ذا طبيعة ناسوتية، و ذهب آخرون الى أنه ذو طبيعة بينية . و نزل القرآن وهم فى حمأة النزاع يقول لهم : ''قل هو الله أحد،، (= المنزه عن الشركة و التعدد فى صقع الذات و الواحدية) ''الله الصمد،، (= المنزه عن الشركة والتعدد والافتقار فى صقع الصفات و التعين أو التجلى فالكل منه مفتقر اليه) و بعد أن يقرر الوحدانية و التنزيه، يبطل مزاعمهم قائلا : ''لم يلد،، (= ليس الأب) : ''ولم يولد،، (= و ليس الابن) : ''ولم يكن له كفوا أحد،، (= و ليس شيئا بين الطبيعتين ولا شئ يعادله أبدا) . هذا، لولا ضجيج المعارك بينهم و عصبيتهم لفهموا قوله لهم خاصة (و لكنهم قيدوا العقل أصلا)، و لسلموا للاسلام بالحق فى أن يأخذ على المسيحية أنها بهذا الثالوث انما تؤسس الحقيقة المطلقة على حادثة تاريخية، على ألوهية مظهر أرضى، الأمر الذى يقتضى ادخال النسبية فى المطلق، أو بالأحرى أنها تنظر الى المطلق على مستوى نسبى، مستوى التثليث . فمنذ اعتبر نسبى خاص على أنه مطلق، كان من المحتم أن يحتاز المطلق شيئا من النسبى . والاسلام منذ كان مؤسسا على مطلقية الله، فانه مضطر الى طرد كل ما هو أرض من المطلق . و لهذا فهو ينكر ألو هية المسيح، ينكر كل صفة الهية مباشرة خارج المبدأ الفرد . ان الحد الفاصل بين النسبى و المطلق فى المسيحية يمر خلال المسيح أما فى الاسلام فانه يفصل العالم عن الله .

ثالثا : مسألة أخرى أساسية، هى مسألة الصلب . فالاسلام لا يقبل هذه المسألة مطلقا . نعم، لقد قتل يوحنا المعمدان فى حياة المسيح، و لكنه لم يكن رسولا . فلماذا يشذ المسيح عن سنة الله مع رسله . . . لقد وقعوا جميعا فى أشد البلاء و أعظم المحن : نار النمرود لابراهيم(ع)، مذبحة فرعون لموسى(ع)،

صلب اليهود للسيد المسيح،(ع) محاولة اليهود و الوثنيين لقتل محمد(ص) أو لسمه . لقد نجا الله الجميع و جعل النجاة آية لكل منهم . فلماذا يغرق المسيحيون فى هذهالدراما المزعومة يبنون حياتهم على ألم موهوم ؟ ان ايمانهم بالآلام و الصليب ليبلغ حدا أن لكل منهم صليبا خاصا، فعلى من تقع تبعة البسطاء ؟ استمع الى الانجيل ينقل عن السيد المسيح قوله فوق الصليب : ”أيها الأب لم تركتنى ؟ !،، و فكر معى، هل كان قد تركه فعلا ؟ ! أم أن السيد لم يصل الى ايمان الذبيح اسماعيل أو اسحق ؟ !

ان اسطورة الاله الذى يموت فداء للبشر لينشر من جديد ليست فى الأصل من المسيحية، و انما هى دخيلة عليها من الديانات الأوربية أو الآسيوية. و كلما نضج عقل البشرية و ارتفعت مداركها لا ترى معنى مطلقا فى أن الها يقتل نفسه ليفتدى خلقه من نفسه مع أن فى امكانه أن يغفر لنفسه قبل أن يغفر لهم أو يفتديهم، أو يهديهم جميعا ولا داعى للفداء . و اذا كانت نية الفداء بهذه الصورة سابقة عند الله ازلا، لما ذا أرسل الأنبياء قبله ؟ ! وما دام يرسل الأنبياء ما هى الضرورة لأن ينزل بنفسه أو يرسل ابنه ؟ ! وما دام قد نزل بنفسه أو أرسل ابنه، هل انتهت الضرورة الى الهداية ؟ !

على أننى نظرا لضيق المجال لا أميل الى مناقشة ما ورد فى الأناجيل و خاصة انجيل برنابا بهذا الخصوص، بقدر ما أؤكد على لفت النظر و توجيه الأذهان الى المحاولة التى قام بها اليهود أخيرا لتبرئتهم من دم المسيح(ع) ولا أرى لهم دليلا على ذلك الا الاسلام الذى يقول : ”وما قتلوه وما صلبوه و لكن شبه لهم،، . غير ان الاسلام فى الواقع و الحقيقة لا يبرئهم من جريمة القتل بل ان الخطيئة لتأخذ بتلابيبهم، و انما ينكر انهم قتلوا السيد المسيح عيسى

بالذات . أما ما أفهمه من رواية برنابا، فهو أن الذى صلب هو من حفر البئر فوقع فيها على حد قول السيد المسيح نفسه، هو الذى قالت الأناجيل عنه انه خنق نفسه واختفى، هو يهوذا الاسخريوطى . أما المسيح (ع) فالاسلام ينزهه عن أن يكون حملافى مخلب الذئب الاسرائيلى .

— ٣ —

و نجيب عن السؤال الثالث بالآتى:

ان الاسلام دين و ليس استعمارا أو احتكارا . والدين لا يبحث عن أرض ليحتلها أو ميادين انتاج ليستغلها أو اسواق ليحتكرها فالأرض أرض الله و الناس سواسية عيال الله، و لكنه يريد الانسان لا هذه الأرض التى تفنيها "واحدة كلمح بالبصر" . وسيلته الى الانسان هى الاقناع، والاقناع بالحسنى. انه لم يستعمل السيف مطلقا الا عند ما كان السيف ضرورة يقتضيها نشر الدعوة الحق أو الدفاع عنها، الا ليرفع السدود و العوائق بينه و بين الانسان . و مهما يكن فسيف المسيحية لم يكن فى هذا الصدد بأرحم من سيف الاسلام .

و حتى نعرض صورة لشرف السيف و أهدافه فى الاسلام نقدم ما ورد عن على بن أبى طالب من أنه هم فى احدى المعارك بقتل مشرك . فبصق المشرك فى وجهه . فأمسك عن قتله و تراجع . عجب المشرك وسأله قائلا : كنت أحسب أن فعلتى هذه ستزيد من ضراوة السيف فى قتلى، و انى لأعجب لاحجامك عن ذلك . و أصر على أن يعرف السبب الذى دفعه الى عتقه من القتل . فقال الامام على: لولم تفعل ما فعلت لقتلتك، و كان قتلك فى سبيل الله وحده، أما الآن فقد اختلط حقى بحق الله و خشيت أن يشوب القتل نوع من الانتقام لنفسى .(١)

---

(١) مثنوى، جلال الدين الرومى .

وروى أن الرجل آمن و نطق بالشهادة فورا. ان أصقاعا كثيرة من الأرض استدعت الاسلام لنفسها و طلبته لتتخلص من أديانها كالمسيحية فى مصر. كما أن شعوبا بملايينها اعتنقت الاسلام فى أربع و عشرين ساعة كما حدث مع الأتراك مثلا.

و الاسلام لا يطالب بعقوبة من غمسوا أقلامهم فى مداد الحقد و الضغينة و حرروا على قراطيس الافتراء و البهتان من الخرافات و الخزعبلات ما لا يتفق مع كرامة العقلاء اذا تعرضوا للأديان بالكتابة، فهناك ساعة يحكم فيها هذا الرعيل على نفسه.

و انما يطالب المسيحيين أولا و قبل كل شئ بغسل الاذهان من كل ما رسمته و حبرته يد العبث و العداوة فى القلوب والأفكار و أن يعملوا بالمبدأ الأول فى الاسلام، مبدأ "انما الأعمال بالنيات"، فتصدق نيتهم على تفهم الاسلام على حقيقته.

فان صح منهم ذلك، فليعودوا الى الكتاب المقدس و ليصححوا كل ما طرأ على العهد القديم من تغييرات و تحريفات. فالاسلام لا يؤمن الا بالكلمة السماوية، لا يؤمن بقصة التوارة السبعينية، فهى مهما قيل من وضع البشر. وليعودوا الى العهد الجديد و يقارنوا انجيل متى فى بساطته بانجيل برنابا مثلا و يتبينوا الفرق بين المسيحية فى بساطتها الأولى وما عليه الآن بعد ان امتصت الفلسفات اليونانية و العقائد الدينية الآسيوية وما الى ذلك. ولا نريد أن نكرر ما قلناه عن العهد القديم فنقول ان العهد الجديد أيضا من وضع البشر و ان السيد المسيح لم يقدم لنا المسيحية القديمة بما هى عليه، بله المحدثة، و انما هذا البناء

العقائدى الضخم الذى يهيمن على العالم المسيحى هو من صنع البشر روحانيين وساسة و ملوك . و ليقفوا عند قول المسيح : ''تحب الرب الهك من كل قلبك و من كل نفسك و من كل فكرك . . هذه هى الوصية الأولى و العظمى، و الثانية مثلها تحب قريبك كنفسك، بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والانبياء،،(١) و لينظروا بعد ذلك فيما جاء به المسيح، هل جاء بشريعة تعتبر بناء لدين كامل تحل محل شريعة موسى التى أبطلها بتلك الوصيتين ؟ !

فان لم يفعلوا أقل من الاعتراف بما لا شبهة فيه من آيات العهدين التى تشير الى الاسلام و نبيه بالاسم و الصفة و الفعل و الزمان و المكان و العلامات الخاصة و العامة. و ليعيدوا النظر فى الكتاب الذى وعد الله بحفظه و حفظه بالفعل، فالقرآن وحده هو الوحى السماوى الوحيد الذى تنزه عن عبث الانسان والزمان . و ليتخذوا موقف العدالة من الشريعة السماوية التى نبذوها فتخلفوا عن مسايرة الزمان و المشيئة الربانية، و من الحكم بين المسيحية التى يقررها القرآن و المسيحية المتأرجحة بين الأرسطية والأفلاطونية. فان لم يفعلوا فلا أقل من أن يثبتوا أن المسيحية دين محبة حقيقية، كما أثبت الاسلام ذلك بالنسبة لهم بكل الطرق و الوسائل و على مستوى العقيدة و القرآن و الحديث و السيرة النبوية، و التاريخ يقدم لنا العديد من المواقف التى اتحد فيها المسلمون و المسيحيون .

— ٤ —

بقى أن نجيب على السؤال الرابع بأن نقول :

ان الاسلام شريعة الى جانب كونه عقيدة، شريعة سماوية لا أرضية، أقل

---

(١) متى، ٣٣، ٣٧ = ٤٠ .

ما توصف به أنها ارادة الله للانسان، وما أجمل أن يضع الانسان نفسه فى علته الغائية فيعيش كما يريد له ربه و خالقه ! و ذاك عندما تتوحد العقيدة و تطبق الشريعة، و يعتقد اليهود بأن (العذراء قد حبلت و أتت بولد و سمته عمانويل) بالفعل، فلا يصححون خطأهم بخطا آخر و يدارون خجلهم من طول الأمد فى انتظار ابن العذراء بالجرى خلف كل ناعق أثيم كما يفعلون، و عند ما يعتقد المسيحيون بأن ''المعزى،، الذى وعد السيد المسيح به قد جاء بالفعل و أن ''الاب،، قد أرسله، عند ما يعم الاسلام الأرض، اعتقد أن أول ثمرات هذا العمل هى ايجاد الوحدة الانسانية و الحكومة العالمية التى فشلت المعسكرات السياسية فى ايجادها، حيث ترتفع جميع الخلافات القائمة اليوم و تنحل جميع المشاكل المحدقة بالعالم الحديث .

و الواقع أنه لا حل لأزمة الانسان المعاصر، خاصة و أنه قد شعر بالضرورة) الملحة و الظمأ القاتل لمعرفة الحقيقة ، و أحس بالضياع فى متاهة التخريفات و المزخرفات الانسانية الزائفة، الا أن يراجع رجالات الأديان مواقفهم و يصححوها قبل فوات الأوان: ''لأنه سيقوم مسحاء كذبة و أنبياء كذبة و يعطون آيات عظيمة و عجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا،، (١) و هذا ما أكده القرآن و الحديث النبوى أيضا .

(١) الانجيل .